المنهج في رحاب الترجمة والتفسير والتخريج

د. عبد القادر سلاّمي- جامعة تلمسان

*ملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على مضامين كلّ من "الترجمة"و"التفسير"و"التخريج"في أبعادها اللغوية والاصطلاحية،وذلك وفق منهج استقرائي ترجع أوليات التفكير فيه إلى الأسلاف بما يمثّل خطوة رائدة في العمل التنظيري، دأب الدارسون المحدثون على إسقاطه على النصوص الأدبية، دون إدراك يمكنّ لهم درء التداخل الحاصل بينها من حيث الدلالة والاستعمال.

أولا:الترجمة بين اللغة والاصطلاح:

ارتبط مصطلح الترجمة عموما بمعنيين لغويين: الأوّل: سيرة فرد من الناس أو تاريخ حياته والثاني: تفسير الكلام,أو شرحه, أو نقله من لغة إلى أخرى جاء في لسان العرب:"و التَّرْجَمَان والتُّرْجُمَان : المفَسِّر,و قد ترجم كلامه إذا فسره بلسان آخر ومنه التَّرجمان و الجمع التراجم".(1) وجاء في القاموس المحيط :"التُرجمان:وهو المفسِّر للسان. وقد ترجمه وترجم عنه , و الفعل يدل على أصالة الفاء". (2)وجاء في المعجم الوسيط:" ترجم الكلام: بينه و وَضَّحَه. و ترجم كلام غيره و عنه , نقله من لغة إلى أخرى.و ترجم لفلان:ذكر ترجمته(مولّدة),و التُّرجمان: المترجمُ و جمعه تَراجِمُ, و تَراجمة , و ترجمة فلان : سيرته و حياته, و جمعها تَرَاجِمُ(مولّدة)"(3) و ورد في الصحاح " يقال: تَرجمان و لك أن تضم التاء لضمة الجيم , فتقول تُرجمان "(4).

و الجدير بالذكر أن ابن النديم(ت438هـ),استخدم كلمة الترجمة للدلالة على نقل الكلام من لغة إلى أخرى.فابن المقفع(ت142هـ) عنده"أحد النقلة من الفارسي إلى العربي."(5)

أما بخصوص البنية الصرفية للفعل(ترجم) فيرى بعض دارسي اللغات الشرقية أن أصلها (رجم) الوارد في العربية و الآرامية و الأوغاريتية و غيرها و وأن التاء الزائدة و سبب زيادتها يحتاج إلى بحث لغوي في تاريخ الكلمة (6) , و على عكس ما أورده صاحب القاموس المحيط من أن الفعل يدل على أصالة التاء.

و يؤكد هؤلاء الدارسين ندرة و جود لفظي (ترجم)و (ترجمة) المتعارف عليهما حديثا في النصوص العربية القديمة . و لعل ما دعاهم إلى مثل هذا الحكم , هو أن المعاجم العربية لا تقدم تأريخا عاما , أو مفصلا لتطور معاني تلك الكلمات , و دلالاته على غرار بعض المعاجم الأجنبية (7). يضاف إلى ذلك أن كلمة (ترجمة) في اللغات الشرقية القديمة الموجودة بالمنطقة العربية كالسريانية و الآرامية و العبرية و الحبشة تعني:(تفسير الكلام).(8)

ومهما يكن من أمر , فإن ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون من أن وجود كلمة (ترجمة) بالمعنى المتعارف عليه حديثا , هو النقل من لغة إلى أخرى نادر في النصوص العربية القديمة ,لا يستند إلى دليل علمي , فالمصطلح أصيل في العربية و ما يدل على أصالته أن العرب استعاروه لقبا للأفراد.

فالترجمان على أيّام الفيروز آيادي (ت817هـ)ابن هُرَيْم أبي طخمة.(9)

كما كان المصطلح عنوانا لبعض مؤلفاتهم . فابن النّديم يذكرلأبي عبد الله المفَجَّع البصري(ت320هـ) كتابا عنوانه (الترجمان في معاني الشعر)(10) ، وهو من الكتب المفقودة.

كما وردت كلمة(التُّرجمان) في الشعر العربي القديم مرّات عديدة. قال الراجز نقادة الأسدي:(11)

فهنّ يُلْغِطْنَ بهِ إِلْغَاطا كالتُّرْجُمَانِ لَقِيَ الأَنْبَاطَا

وقال عوف بن معلم الخزاعي:(12)

إنّ الثَّمَانينَ وبُلِّغْتَها قد أحْوَجَتْ سَمْعِي إلى تَرْجُمَانِ

كما وردت كلمة(المترجم) في قول المتنبي:(13)

إذْكارُ مثْلِكَ تَرْكُ إذْكاري له إذْ لا تُريدُ لما أُريدُ مُتَرْجِمَا

فأذكرته بمنزلة ذكرته والمترجم المعبّر عن الشيء المترجم مثل التُّرجمان. (14)

وبعد هذا فليس لنا إلاّ أن نقرّ بأصالة الفعل (ترجم) ، وبالأسماء والصفات(ترجمان) و(مترجم) و(ترجمة) في اللغة العربية أصالتها في اللغات السامية، مبرزين مدى التقارب الحاصل بين معانيها، وعنايتها بنقل الكلام من لغة إلى أخرى، على اعتبار أنّها مثّلت فعلاً حضارياً أصيلاً في التراث العربي القديم، وما ندرة دوران الكلمة في لغة العرب ،كما يدّعي بعض المستشرقين لا يقوم دليلاً على أنّ العرب مارسوا الظاهرة لمسميات ابتدعوها ، الأمر الذي لا يُعدم الترجمة على تأخّرها كمصطلح في شئ.

ثانياً:التفسير بين اللغة والاصطلاح:

ارتبط مصطلح التفسير في المعاجم العربية بمعان منها: البيان، والتأويل، والتوضيح، والشرح.
فالفَسْرُ في الصّحاح واللسان هو البيان ، وفَسَرْتُ الشيء أَفْسِرُه فَسْراً وفسَّره: أبَنْتُه، والتفسير مثله.
واستفسرتُه كذا، أي : سألته أن يفسِّر لي، وكلّ شيء يُعرَف به تفسير الشيء ومعناه، فهو تَفْسرَتُه.(15)

وقد ارتبط هذا اللفظ بلفظ آخر ، وهو التأويل ، وهو في معناه. فقد جاء في اللسان: وأوَّل الكلام وتأوَّله: دبَّره وقدَّره وأوَّله: فسَّره... وسئل أبو العبّاس ثعلب(ت291هـ) عن التأويل، فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد. (16) ويرى ابن الأعرابي(ت 231هـ) أن التفسير والتأويل والمعنى واحد. وقوله عز وجل:(**وأحْسَنَ تفسيراً**)(17)، الفَسْر: كشف المغطو التفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل,و التأويل:ردّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.(18)

أما الشرح,فقد ارتبط بمعان , منها : الكشف و التوضيح و البيان, و الفتح و التفسير و الحفظ . فقد ذكر ابن منظور (ت711هـ) أن الشرح هو الكشف, يقال : شرح فلان أمره , أي: أوضحه , و شرح مسألة مشكلة : بيّنها , و شرح الشيء يشرحه شرحا : فتحه و بيّنه و كشفه . وكل ما فتح من الجواهر , فقد شرح أيضا,تقول:شرحت الغامض:إذا فسّرته(19).ثم ذكرما

قال ابن الأعرابي(ت231هـ) في هذه المادة نفسها والشرح:الحفظ,والشرح: الفتح,و الشرح البيان,و الشرح:الفهم.(20)

و الحق أن أغلب المعاني و تلك معان مشتركة , وإن كانت في الوقت نفسه تتفردّ بالدلالات خاصة تميزها عن المعاني الأخرى , إلا أن الشرح ارتبط كثيرا بالتفسير , و لعل هذه المفردة هي التي تؤدي المعنى على أحسن وجه , فالمعاني الأخرى تحوي معنى الشرح و لكنها لا تشمله. فقد جاء في المعجم الوسيط:" شرح الكلام : أوضحه و فسّره. "(21) و سبب هذا الارتباط الوثيق بين الشرح و التفسير , وجدنا من يُسمّي شرحه بالفَسْر, مثل ما فعل ابن جني(ت392هـ) عندما عنون شرحه المتنبي "بالفَسْر" .

وبعد هذا الذي أوردناه , ألا يوجد فرق بين هذين المصطلحين: " شرح" و " تفسير" ؟ فالجواب يكون بالإيجاب . فالتفسير :" بيان وضع اللفظ إمّا حقيقة أو مجازا(22) ", وأمّا الشرح فإنه " يجمع بين بيان وضع اللفظ و بين تفسير باطن اللفظ , أي" التفسير و التأويل(22), و

بذلك خرجت دلالات هذه الألفاظ من معنى المشترك حين دخلت مجال الدراسة العلمية , فاختص التأويل و التفسير بالدراسة القرآنية (23) و المعجمية , و الشرح بالشعر , إلا فيما ندر,وأصبح لكل منها اصطلاح خاص به. فالشرح هو التعليق على مصنف درس من و جهة علوم مختلفة و قد كتب الشروح على معظم الرسائل المشهورة أو الأشعار العربية نحو شرح مقامات الحريري(ت516هـ) (فقه اللغة) (24), و شرح مشكل شعر المتنبي . وعلى هذا فالشرح أيضا :" توضيح المعنى البعيد بمعان قريبة معروفة "(25), ومن هنا اكتسب الشرح معناه الخاص . وأما التفسير , فهو شرح , لكنه من نوع آخر , فهو " شرح لغوي أو مذهبي لنص من النصوص "(26)ومن هنا نجد أنّ هذا الاختصاص لم يأت اعتباطا , فلكل مصطلح مجاله الذي يتقاطع فيه مع المجال الثاني, لكنه لا يتّحد معه رغم من اتحادهما في الأصل اللغوي.

ومما سبق , نخلص إلى القول : إن الشرح لفظ عام , وهو مصطلح ذو شقّين:التفسير و التأويل, وقد يتداخل الشّقانّ أثناء عملية الشرح,وقد نضطر إلى التعامل مع التفسير على أنّه مرادف للشرح.

ثالثا: التخريج بين اللغة والاصطلاح:

التخريج مشتق من الفعل الثلاثي:خرج،والخروج نقيض الدّخول.والخَرْجُ والخَرَاجُ، واحدٌ، وهو شيءٌ يُخرجه القومُ في السَّنة من مالهم بِقَدَرٍ معلُومٍ. والخَرَجُ بالتحريك: لونان سوادٌ وبياضٌ.والخُرُجُ: من الأوعِيَة، عربيٌّ، وهو جُوَالِقٌ ذو أَوْنَيْن(*)،والجمع أَخْرَاجٌ وخِرَجَةٌ.والخَرَاجُ والخَرِيجُ والتخريج كلّه لعبة لفتيان العرب ، نحو قول أبي ذؤيب الهذلي:(27)

أَرِقْتُ له ذاتَ العِشَاءِ كأنّه خَارِيقُ(*) يُدْعَى تَحْتَهُنّ خَرِيجُ

أما في الاصطلاح، فالتخريج هو التماس المعاذير والحيل، إذا ما وجد في شعر ما خروج عن المألوف من القواعد من باب الضرورة الشعرية، (*)، وهو ما عبّر عنه الفرّاء(ت207هـ) بقوله:" وذلك أنّ الشّعر له قوافٍ يقيمها الزيادة والنّقصان،فيحتمل ما لا يحتمله الكلام".(28)ومعنىذلك أنّ"العرب تلجأ إلى مثل تلك التعديلات في لغة الكلام لموافقة أوزان الشعر وقوافيه"(29).

وقد وجد النّحاة مخرجا لبعض الشعراء وأوّلوا الأخطاء التي وقعوا فيها أثناء نظمهم ، إمّا تقويما للقافية أو استواء للوزن.ففي البيت السابق مثلاً "لا يُقالُ خريجٌ، ولإنّما المعروف" خَرَاجٌ" غير أنّ أبا ذؤيب احتاج إلى إقامة القافية فأبدل الياء مكان الألف".(30)

أمّا عن تعرّض النّحاة لشطر البيت الموالي:

وَزَقَّةٍ الدِّيكِ بصوتِ زَقَّا

فإنّهم يقولون:" إنّما أنّثه على إرادة الدّجاجة؛لأنّ الدّيك دجاجة أيضاً".(31)

وهو مذهب القزّازالقيرواني (ت412هـ) الذي يعترف بضرورة إقامة الوزن في الشعر، والتغلّب على بعض الصعوبات اللغوية أو التصرّف في وجه من وجوه الألفاظ من حيث البناء والإعراب أو الصياغة في إطار مراعاة النسق في الأصوات وانتظام الإيقاع.(32)

ومن أم على الضرورة في الشعر قول متمّم بن نويرة:

على مِثْلِ أصْحَابِ البَعُوضَةِ فَاخْمِشِي(*) لَكِ الوَيْلُ حُرَّ الوَجْهِ أَوْ يَبْكِ مَنْ بَكَى

فقد حذفت لام الأمر ، والأصل" ليبك" ، فقد ذهب البصريون إلى جواز حذفها للضرورة(33)، وهو ضرب من التخريج.وعلى هذا فالضرورة الشعرية هي ما لم يرد في الشعر سواء كان للشاعر فيه مندوحة(*) أم لا.(34)

غير أنّ من العلماء من رأى أنّ غاية ما هناك أنّ الشّاعر يكون مشغولاً بموسيقى شعره منهمكاً بأنغام قوافيه ، فيقع في هذه الأخطاء من غير شعور منه، وهو ما أكّده أبو هلال العسكري(ت358هـ) بقوله عن الضرورة: "وإنّما استعملها القدماء في أشعارهم لعدم علمهم بقباحتها ؛ ولأنّ بعضهم كان صاحب بداية، والبداية مَزَلَّة،وما كان أيضاً تنقد عليهم أشعارهم ولو نقدت وبُهْرِجَ(*) منها المعيب، كما تنقد على شعراء هذه الأزمنة، ويبهرج من كلامهم، ما فيه أدنى عيب، لتجنّبوه".(35)

ونحن نعلم أنّ السليقة اللغوية مرتبطة بالجنس والوراثة،أي أنّها فطرية ، لذلك كان كثير من اللغويين العرب لا يجرؤ على تخطئة الشعراء، الذين كانوا يخالفون النّظام اللغوي ، وبذلك فهم لا يعترفون بضرورة الشعر.

الهوامـش

(1) ابن منظور: لسان العرب، 229/12،مادة(رجم).

(2) الفيروزآباد: القاموس المحيط، 4/ 84، مادة(ترجم).

(3) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط،83/1، مادة(ترجم) .

(4) الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،1928/5، مادة (رجم).

(5)المصدر السابق ص 523.

(6) فؤاد عبد المطلب: الترجمة بين الأصالة و الدلالة،ص13.

(7) Harrap s ,Petit dictionnaire,Anglais-Francais/Francais-Anglais ,1998,P 354-355.

(8) فؤاد عبد المطلب:الترجمة بين الأصالة و الدلالة ، ص13.

(9) الفيروزآبادي: القاموس المحيط،4/ 84 مادة(رجم).

(10) ابن النديم: الفهرست ، ص379-380.

(11) ابن منظور: لسان العرب، 230/12، مادة(رجم).

(12)القالي: الأمالي في لغة العرب،1/ 51.

(13)المتنبي: الديوان، ص21.

(14)أسعد مظفر الدين حكيم: علم الترجمة النظري،ص38.

(15)الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،781/2، مادة(فسر) وابن منظور:لسان العرب،55/5،مادة(فسر).

(16) المصدر السابق،33/11،مادة(أول) .

(17) الآية 33 من سورة الفرقان .

(18) ابن منظور: لسان العرب،55/5،مادة (فسر) .

(19)المصدر السابق497/2-498، مادة (شرح) .

(20) المصدر السابق، 498/2، مادة(شرح).

(21) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط،1/ 477، مادة (شرح).

(22) وناس بن مصباح : ملاحظات أولية حول الشروح الأدبية ، مجلة الحياة الثقافية، العدد 41 , 1986,ص 36.

(23) أمين الخولي: التفسير , معالم حياته , منهجه اليوم، ص 68.

(24) دائرة المعارف الإسلامية ، 188/13.

(25) يوسف خياط :معجم المصطلحات العلمية و الفنية، ص 351, 501.

(26)المرجع السابق ص 351, 501.

(*) أونيْن: مثنى أَوْن : وهما جانبا الحُرج. ينظر: إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، 1/ 33، مادة(آن).

(27) ابن منظور، لسان العرب، 249/2، 251-253، مادة (خرج) وابن فارس، معجم مقاييس اللغة، 176/2، مادة(خرج) وعجز البيت فيه بغير لفظ، واللفظ بتمامه* مخاريق يدعى بينهُنَّ خريج*.

(*) المخاريق: جمع مِخْراق، وهو في الأصل عند العرب: ثوبٌ يُلَفُّ ويَضْرِبُ الصِّبْيانُ به بعضهم بعضاً.ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 76/10،مادة (خرق).

(*) الضرورة الشعرية عند جمهور علماء اللغة : مخالفة المألوف من القواعد في الشعر، سواء ألجأ الشاعر إلى ذلك بالوزن والقافية أم لم يلجأ.(ينظر:السيوطي،الأشباه والنظائر في النحو، 244/1، و البغدادي،خزانة الأدب، 34/1). وهم بهذا التعريف يبعدون بالضرورة الشعرية عن معناها اللغوي وهو "الاضطرار مطلقا" بما يخصّص دلالتها ، مما يجعل قبول رأيهم هذا ضرباً من إلغاء التفكير المنطقي والتحكّم بغير دليل أو برهان، ذلك أنّ الضرورة الشّعرية في نظر بعض المحدثين ليست في كثير من الأحيان إلاّ أخطاء غير شعورية في اللغة و وخروجاً عن النّظام المألوف في العربية. ينظر:رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص163.

(28) الفرّاء، معاني القرآن،118/3.

(29) مقدمة تحقيق القزّاز القيرواني، ضرائر الشعر أو كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة، ص113-14.

(30) ابن منظور، لسان العرب، 253/2، مادة(خرج)

(31) محمد عوني عبد الرؤوف، القافية والأصوات اللغوية، ص132.

(32) مقدمة تحقيق القزاز القيرواني، ضرائر الشعر أو كتاب ما يجوز للشاعر في الضرورة ، ص18.

(*) فاخمشي: فاحدشي. ويكون ذلك في الوجه ، وقد يستعمل في سائر الجسد. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 299/6، ماد(خمش).

(33) ابن عصفور، ضرائر الشعر، ص102.

(*)لا مندوحة:أي لا سعة أو متّسع. ينظر:ابن منظور، لسان العرب، 613/2، مادة(ندح).

(34) ابن فارس، الفرْق، ص 143.

(*) البهرج: الباطل، و كلُّ مردود عند العرب بَهْرَجٌ ونَبَهْرَجٌ.. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 217/2، مادة(بهرج).

(35) أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 157.